



ما زلت أذكر كلمة أحد رواد الفكر الإسلامي وهو يسرد تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة وما اعترضها من المحن، فكان يقول بعد كل محنـة: (ثم تقوم الحركة من جديد فتصبح أقوى مما كانت) .. ولا شك في أن المتبـع للتاريخ المعاصر يلاحظ هذه الحقيقة واضحةً لا مراء فيها.

وهذه القوة الـبـادـية تـأـتـي من التـمـحـيـص والـصـفـل لـصـفـوـف الإـسـلـامـيـين، فـيـكـوـن الـاـنـتـشـار والـتـمـكـين عـلـى أـسـس ثـابـتـة لا خـوـرـ فـيـها.

ولقد كان الجـيل الأول من جـمـوـعـ الحـرـكـة الإـسـلـامـيـة المـعاـصـرـة، جـيـلـاً كـبـيرـاً مـؤـثـراً، (وـحـين جـاءـتـ الضـرـبةـ عـامـ 1948 - 1949، فـرـ كـثـيرـ منـ تـلـكـ الجـمـوـعـ.. فـرـ المـتـصـوـفـونـ.. فـقـدـ عـرـفـواـ يـقـيـنـاـ أـنـ هـذـهـ لـمـ تـكـنـ جـمـاـعـةـ صـوـفـيـةـ، إـنـمـاـ كـانـتـ حـرـكـةـ جـهـادـيـةـ يـتـعـرـضـ أـصـحـابـهـ لـمـ يـتـعـرـضـ لـهـ الـمـجـاهـدـوـنـ منـ قـتـلـ وـتـعـذـيبـ وـتـشـرـيدـ وـمـطـارـدـةـ، وـمـاـ لـهـذـاـ كـانـوـاـ قـدـ جـاؤـواـ وـلـاـ عـنـدـهـمـ اـحـتـمـالـ لـهـ.. فـرـ الـمـسـتـنـفـعـوـنـ.. فـقـدـ عـرـفـواـ يـقـيـنـاـ أـنـ هـذـاـ القـطـارـ هوـ أـبـعـدـ شـيـءـ عـنـ الـوـصـوـلـ إـلـىـ كـرـاسـيـ الـحـكـمـ، وـهـمـ لـهـذـاـ جـاؤـواـ لـاـ يـعـرـفـوـنـ غـيـرـهـ وـلـاـ يـسـتـهـدـفـوـنـ سـوـاـهـ.. وـفـرـتـ الـجـمـاهـيرـ.. فـمـاـ عـادـ هـنـاكـ مـاـ يـشـبـعـ وـجـانـهـمـ الـدـيـنـيـ.. وـهـمـ لـاـ يـعـرـفـوـنـ مـنـ إـسـلـامـ غـيـرـهـ، إـنـمـاـ هـنـاكـ سـجـنـ وـتـعـذـيبـ وـتـشـرـيدـ وـتـقـتـيلـ.. وـمـاـ لـهـذـاـ كـانـوـاـ قـدـ جـاؤـواـ وـلـاـ عـنـدـهـمـ اـحـتـمـالـ لـهـ.. فـالـهـرـبـ الـهـرـبـ قـبـلـ أـنـ تـعـثـرـ عـلـيـهـمـ السـلـطـاتـ وـتـهـمـهـمـ بـأـنـهـمـ كـانـوـاـ هـنـاكـ!

وبـقـيـ الشـبـابـ النـظـيـفـ الـمـطـهـرـ.. وـمـعـ ذـلـكـ لـمـ يـبـقـ كـلـهـ.. فـمـاـ كـانـ كـلـهـ يـعـرـفـ مـنـ قـبـلـ عـقـابـيـلـ الـطـرـيـقـ.. إـنـمـاـ كـانـ يـظـنـ أـنـهـ سـيـاحـةـ طـيـبـةـ فـيـ جـوـ نـقـيـ.. بـعـيـدـاـ عـنـ قـدـارـاتـ الـمـجـتمـعـ الـذـيـ يـعـيـشـ فـيـهـ.. أـمـاـ التـعـرـضـ لـلـسـجـونـ وـالـمـعـتـقـلـاتـ وـالـتـشـرـيدـ وـالـتـعـذـيبـ فـلـمـ يـكـنـ فـيـ حـسـبـانـ كـثـيرـ مـنـهـمـ)[1].

وـالـآنـ تعـصـفـ بـالـحـرـكـةـ هـذـهـ الـمـحـنـةـ الـتـيـ تـكـشـفـ كـلـ يـوـمـ كـثـيرـاـ مـنـ الـحـقـائـقـ الـتـيـ لـمـ تـكـنـ لـتـظـهـرـ بـهـذـاـ الـوـضـوـحـ إـلـاـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـأـحـدـاـثـ، فـأـضـحـتـ هـذـهـ الـحـقـائـقـ أـنـوـاـرـاـ تـكـشـفـ الـطـرـيـقـ وـتـعـيـنـ السـالـكـيـنـ عـلـىـ الـوـصـوـلـ إـلـىـ غـاـيـةـ الـمـسـيـرـ، وـهـذـهـ بـعـضـ الـحـقـائـقـ الـتـيـ ظـهـرـتـ مـنـ ظـلـالـ الـمـحـنـةـ:

الـقـوـةـ الـحـقـيـقـيـةـ:

أول حقيقة كشفتها المحنّة هي قدر الإسلام في بلادنا، وللوضيح ذلك نقول: من المعلوم أنَّ القدر الحقيقي لوجود عقيدة أو فكرة في الواقع إنما يكون انعكاساً لثبات هذه الفكرة في قلوب معتقديها ومدى تمسكهم بها واستعدادهم لبذل نفوسهم وأموالهم وأوقاتهم من أجلها، وهذا ما نسميه (الإيمان) بما يحويه هذا المصطلح من معاني الصدق والإخلاص والثبات والوفاء وغير ذلك، وإنما تسعى الفكرة للرسوخ والثبات في واقع الناس بقدر سعيها إلى منازل اليقين في القلوب، فتظهر وتغلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)، فهذه الطائفة لَمَّا كانت على الحق ظاهرة، ظهر الحق بها، وأنَّ كمال الظهور لا يكون إلا بكمال العزة، والذي ينبع من كمال الثقة بالحق، قال صلى الله عليه وسلم عن هذه الطائفة: (لَا يضرهم من خذلهم)[2]، فلا يُصِيبُ الْخَاذلَ وَالْمَخَالِفَ مِنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ شَيْئاً، بل لا يزيد التخزيء نفس المؤمن إلا إيماناً وتسليماً: {مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].

فريق الهوا:

بعض أبناء الحركة الإسلامية لا يعدو مكانه في الحقيقة أن يكون من الهوا؛ يتبع ويُحَلِّلُ، ويتأثر ويناقش، وقد تكون لديه رُؤىًّا جيّدة للعمل، وأساليب أخاذة في الحوار، وفهم دقيق للأحداث؛ وكل هذا جيد، لكن أن لا يعدو مكانه هذا القدر، فهذا من فريق الهوا.. هذا الشخص لن يصنع واقعاً بالمرة، (إِنَّمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ مُعْتَمِدِينَ عَلَى هَذِهِ الْعَاطِفَةِ الْبَارِدَةِ لِلتَّضْحِيَةِ أَنْ تَغْلِبُوكُمْ فِي الْحَرْبِ مَعَ أَوْلَئِكَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، الَّذِينَ يَضْحُونَ بِالْمَلَائِكَةِ مِنَ الْجَنِّيَّاتِ كُلَّ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ غَيَّاْتِهِمُ الْبَاطِلَةِ؛ فَمَا ذَلِكَ إِلَّا حِمَاقةٌ مِنْكُمْ)[3].

نعم، لا بد أن يكون الإنسانُ بذاته وقلبه ومشاعره وأفعاله جزءاً من الصراع، فإنَّ هذا هو أولُ الطريق أو نقطة ما بعد الصفر، أما قبل ذلك فلا يُعَدُّ في الواقع صاحبَ قضيّةٍ أو معتقداً لفكرة، فإنَّ صاحبَ القضية لا يتكلُّم إلا لتقريرها، ولا يتبع ويُحَلِّل إلا لأجلها، ولا يتحرك في هذه الحياة إلا لإيجادها وتطويرها، ولا تقرُّ عينه إلا حينما يجد ثمرة جهده بناءً شامحاً مستوياً على سوقه (يُعَجِّبُ الزَّرَاعَ لِيَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارَ)[4].

تحصيل سُبُلِ المغالبة:

كيف يدعّي الإنسان أنه من أهل الإيمان ومن أهل النصر ثم هو لا يسعى في تحصيل سُبُلِ المغالبة والانتصار {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْدَوُا لَهُ عُدَّةً} [التوبه: 46]؛ وكيف يرجو ظهور الدين على يديه وأعداء الدين يبذلون في سبيل إقصائه والقضاء عليه من جهودهم وأوقاتهم وأموالهم أفضل وأكثر مما يبذل هو في سبيل إعلائه وإظهاره؟ فلا بد امتلاك أدوات المعركة لكي تكون مُحرِّكاً للأحداث لا مُتَحرِّكاً بها، وبداية هذا رصدٌ دقيقٌ للأحداث وانغماسٌ في المجتمع وهمَّةٌ عالية لا تفتر في المتابعة والتحليل، لبناء رؤيةٍ متكاملةٍ سليمةٍ توضع الخطط وفقاً لها، ثم همَّةٌ أخرى في تنفيذ هذه الخطط في نظامٍ دقيقٍ وأداءً مبدع، وبهذا تفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ)[5].

بِلَادِي.. لِأَهْلِ الْآخِرَةِ:

إنَّه من أنهار الجنة[6]، وإنَّها قطعة من الجنة، وإنَّ أولى الناس بها أهل الآخرة؛ {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: 22].

ما خَلِقْتَ لَهُ؛ تَعْرِفُهُ من استقراء الشرع والواقع، والله لن تستفيد من حياتك إلا أن تكون من أهل الآخرة، بل أي تردد ولو يسير في جعل نفسك من أهل الآخرة سيؤثر في مشروعك الحياتي تأثيراً لا تخيله.. فمن البداية، أنسحك بألا تخدع نفسك؛ فإن البناء القوي الشاھق إنما يقوم على أساس أخفى وأقوى.

هل أنت من أهل الآخرة؟ من فضلك لا تتسرب في الإجابة عن هذا السؤال، وتفكر طويلاً في نفسك، في نظام تفكيرك، في برنامج حياتك، في أهدافك وأولوياتك، في.. ما تحب وما تكره، ما يُفرحك وما يُحزنك، في.. مشاعرك وأحساسك، في علاقتك

بالناس وتقييمك لهم ولمواقفهم، في قيمة نفسك عندك، ومعاني العزة والحرية والحب والتواضع والنصرة والولاء.. تأمل في حالك ثم قس نفسك بأهل الآخرة.

هل أُخبرك أين تجد أهل الآخرة؟ تجدهم في كتاب الله، وأظهرُ أوصافهم أنهم أحد فريقين متفاصلين {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: 36]، {كَفَرُنَا بِكُمْ وَيَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدًا} [المتحنة: 4]، أما أكثر الناس فأهل دنيا؛ فيها يفكرون، ولها يعيشون، فإذا انقضت ذهبت معها أحلامهم، وتحطم آمالهم.

عزاء المؤمنين.. إن الله لا يصلح عمل المفسدين:

هذه عقيدة نؤمن بها إيماناً بالمحسوسات وال موجودات، وانطلاقاً من هذه العقيدة تشعر بقيمة عملك الإصلاحي، وأنه باقٍ ومؤثر رغم كل الظروف المحيطة، والله من ورائهم محيط.

والقرآن نزل لبيان هذا المنهج الإصلاحي؛ ففي أوله رد دعوى المفسدين الذين في قلوبهم مرض بأنهم مؤمنون مصلحون، وبعدها بقليل: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَتَحْنُّ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُفَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]، ثم يأخذ القرآن في بيان هذا المنهج بياناً واقعياً؛ حيث يرسم ملامح المواقف والشخصيات رسمًا دقيقاً بالأحساس والمشاعر والأحداث، بل بالأعلام والرياح، والبحرين والسدود، والنجوم والشجر والدواب، والله لن تتعرف هذا المنهج فضلاً عن أن تعمل به حتى تمسَّ حقائق القرآن قلبك، وتصيرُ هي أساسَ تصوّرك للحياة.

بقي أمرٌ مهمٌ، وهو أنَّ صدق النوايا يُعرف بعلو الهم، فلا تتساوى نية من أتلف نفسه في سبيل دينه ومن أشبعها من لذة الظهور والشهرة.

دماءٌ واحدة:

إذا رُزِقَ الإنسان أخاً من أهل الآخرة، فالخير كله رُزِقَ، وإذا تضاعفوا فالزيادة والبركة، وإذا ازداد تضاعفهم فقد وصلوا أو أُوشكوا؛ هذا بشرط أن تيأس حيَّات الفتى من اكتشاف ثغر تتسل منه، فتنبل خارج الأسوار، فتموت، ويُصلَّى على من يوْقظها باللعن.

نعم.. بلاد الإسلام تستحقُ {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا 19 كُلُّا نُمُدُّ هُوَلَاءَ وَهُوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا 20 انظُرْ كَيْفَ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخرةُ أَكْبُرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبُرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 19 – 21].

فانظر أين تضع نفسك في هذه الحياة.. والله المستعان.

[1] بتصْرُفٍ عن واقعنا المعاصر.

[2] الحديث أخرجه مسلم (1920) عن ثوبان رضي الله عنه، وفي حديث سعد رضي الله عنه : (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) أخرجه مسلم (1925)، والغرب غرب المدينة، وهو أقطار الشام ومصر وغيرها.

[3] تذكرة دعاء الإسلام ص: 44.

[4] سورة الفتح آية (29).

[5] أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد حسن.

[6] أخرج البخاري (5179) عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلم قال في حديث المراج: (رُفِعْتُ إِلَى السَّيِّدَةِ فَإِنَّا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٌ ظَاهِرَانِ وَهَرَانِ بَاطِلَانِ، فَمَأْمَأُ الظَّاهِرَانِ النَّبْلُ وَالْفَرَاتُ)، وأخرج مسلم (2839) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سِيَاحٌ وَجَنَاحٌ وَالْفَرَاتُ وَالنَّبْلُ كُلُّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ)، قال ابن العربي: وهذا تفسير لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَرَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّا عَلَى ذَهَابِهِ لَقَادِرُونَ} [سورة المؤمنون: 18]، يعني به: نهرٌ يجري، وعينٌ تسيل، وماءٌ راكداً في جوفها، والله أعلم. (أحكام القرآن سورة المؤمنون آية 6).

